

الفصل الثامن والستون

وفى رحلتنا إلى مصر فى سفينتنا شاهدنا على ضفتى النيل الحدائق المبهجة وخرجنا أولاً من دمياط ومضينا مسافة قدرها ستون ميلاً ومقابل دمياط أرض خالية سبخة، ولا وجود فيها لعمران ولكن فى طرف دمياط حدائق من قصب السكر، وفى هذه الديار يسمونها القرى ويوتها أكواخ ولا وجود فيها لبيوت فخمة، لان فى أرضهم ينبت الأرز، وأرضهم أرض مستنقعات ولا تحتل بناءً ثقيلاً، ولا تروى فيها أرض الأرز ولكن فيها القمح وليس فيها فول ولا حبوب لأنها أرض ذات ماء والأرز ينبت على الدوام فى الماء يا له من مشهد عجيب.

وفى هذه الأرض يفيض ماء النيل ولا ينقص وقد اجتزنا القرى التى فى أرض دمياط إلى فرسكور.

أوصاف منزل فرسكور فى مدينة فارس القديمة

إنه منزل بناه الملك فرسكور بن مصرايم، وقد عمر ألف سنة وملك مائة بلد، وكان له مائة ألف فارس جوادهم أبلق وألف فارس جوادهم أشهب، وهى إقليم التزام دمياط وقضاء بدر مائة وخمسون أفجه إلا أن هذا المبلغ يمنح غالباً لقضاء دمياط وفى هذه الناحية قرى تزرع الأرز فيها كلها، وعلى ضفة النيل مدينة تبعد عنه مائتى خطوة وتقع على ربوة وبها ألف بيت وسبعة عشر محراباً وست منارات وثلاثمائة دكان، وثلاث مقاه وحمام، ولكنها تخلو من السوق والعمارات والمبرات والسبل والمدارس، ولكن فيها ثلاثة خانات عظيمة، ويقام فيها سوق مرة كل أسبوع، ويتكسب أهلها من حياكة الثياب المنقوشة ولكل منهم طرز، وبها ثلاثمائة دكان تقدم المال إلى الملتزم إنها مقر لمن يصنعون الثياب المنقوشة وأرز وثياب فرسكور واسعة الشهرة.

وتبته التى زرناسها تقع شرق البحيرة المذكورة، وجوها لطيف وبها كثير من النخل والحدائق، وبين دمياط والنيل مدينة جميلة وفى قبالتها:

كضر سليمان أغا

فى إقليم الغربية وبها جامع ذو منارة وثلاثمائة بيت وتجاهها فى إقليم الشرقية:

بلدة شرباز

وبها مائة بيت وجامع ومنازة وقرى معمورة، وفيها قبر دفن فيه الشيخ شرباز، وبهذه المحلة تتم حدود دمياط، وهي تحت حكم حاكم الشرقية وقبالتها في أرض الغربية:

بلدة ميت أبو غالب

وبها جامع ذو منارة ومائة وخمسون بيتاً ومقهى، وعند هذه المحلة يتعرج النيل تارة ذات اليمين وتارة ذات اليسار وقبالتها في أرض الشرقية:

بلدة رأس الخليج

وهي التزام، وبها ثلاثمائة بيت، وبها جامعان، ووكالتان ومقهى وستة دكاكين، وقد دفن فيها الشيخ غزوان، والشيخ حسن أبو تقي الدين، والشيخ محمد عجمي وعلى بعد عشرين ميلاً جنوبها وفي إقليم الشرقية:

بلدة ميت أبو عبد الله

ويسمون القرية ميت وهي التزام وبها مائة بيت وجامع ذو منارة، وتجاهها في أرض الغربية:

بلدة طهرية

وبها مائة وخمسون بيتاً وجامع وقبالتها في أرض الشرقية:

بوشاط

وعدد بيوتها مائتان، وبها جامع ذو منارة. وفي المقابل منها في أرض الغربية:

بلدة دنجى

وبها جامع وفي جانب المنصورة بلدة أبادان.

أوصاف محلة مشاق

إنها التزام الكتخدا القونداقجى مصطفى وبها ستمائة بيت وجامع ومقهى ووكالة، وفيها أسواق صغيرة، ولا وجود فيها لحمام ولا سبيل، وتجاهها في أرض الغربية:

مدينة المنصورة

وهي في الجانب الشرقي، وقد عبرنا إليها، وتجاوزناها خمسين ميلاً وبلغنا مدينة سرسه.

أوصاف محلة شريين

إنها محلة كبيرة فى إقليم الغربية وهى قضاء كبير يدر مائة وخمسين أقرجه ويمنح قاضيها مرتباً، وفيها أربعون قرية معمورة، ويتحصل منها أربعة أكياس وبها ألف بيت وسبعة وبها سبعة محاريب كما أن بها جامعاً كبيراً له منارة تتألف من ثلاثة طوابق، وبها كذلك خمسون مسجداً ومدرسة وخمسون دكاناً، وأربعة مقاه يجتمع يوم الجمعة خلق كثير فى السوق ويجوارها:

كفر شريين

وبه مائة بيت وهو التزام، وتجاهه فى النيل جزيرة صغيرة وفى الجهة المقابلة حدود كاشفية المنصورة، وهى كاشفية معمورة قضاءها يسمى قضاء مشاق، وقد سلف ذكر بلدة مشاق، وتقع هذه البلدة فى سهل منحرف فى شريين اجتزنا هذه المحلة إلى شريين، وقبالتها فى إقليم المنصورة:

بلدة بدرى

بها مائة بيت وجامع وهى التزام، وتجاهها فى إقليم الغربية:

بلدة بترا

وبها ثلاثمائة بيت وجامع ومقهى وهى التزام وبعدها وفى جنوبها فى إقليم المنصورة محلة برمبال.

أوصاف محلة برمبال

إنها التزام، وبها مائة بيت وقد سألنا شيخ البلدة عن مقدار ما تؤدى من مال للدولة فما عرف، وبها عدة جوامع ومقاه ومساجد وخانات ودكاكين، وإنها بلدة فى مهب الريح ولا أعرف حماماً بها، وفى تجاهها فى إقليم الغربية.

بلدة دياسط

وفىها دفن الشيخ دياسط، وتجاهها فى إقليم الغربية:

بلدة الخيارية

وقد وجدت بها ثلاثمائة بيت وجامع ذو منارة جميلة وفى جانب الغربية:

بلدة تاش

وبها ثلاثمائة وخمسون بيتاً وجامع ومقهى، وفي شرقها ولاية دقهل.

أوصاف ولاية دقهل

مدينة المنصورة أول من بناها أحد أبناء نوح أبو القبايط بيطر بن حام الأخ الأكبر لسام، وابن بيطر هذا يسمى دقهل، ولذلك تسمى ولاية إقليم المنصورة باسم دقهل، ومن بعد استطاب جوها من سلاطين مصر الصالح أيوب فزاد في عمرانها فأصبحت كأنها روضة الجنات، ثم قدم إليها الأسبان الملاعين بسفنههم فاستولوا عليها وأقاموا بها ثم أغار عليها الملك الصالح أيوب انطلق نحو غزة، ثم رجع فاستعاد مدينة دمياط، أول الأمر، ثم استولى على مائتي سفينة للكفار، وعسكر في المنصورة معسكراً للكفار، وطوال سبع ليالٍ لم ينجو الكفار من الهلاك وهذا مسطور في جميع التواريخ، ولذلك سميت مدينة دقهل بالمنصورة، وفي عام ٩٣٢ غادر الملك الكامل ناصر الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب مصر الكنانة واتخذ المنصورة حاضرةً للملكه، وعمرها ولم يبقَ الآن شيء مما شيده، وفي هذا العصر أقام له قصرًا على شاطئ النيل وبقي منه الآن قصر صغير أمام قصر كاشف المنصورة، وقد وافاه الأجل في المنصورة، ونقل جثمانه إلى مصر ودفن في جامعها، وبعد ذلك بعام شب حريق في المنصورة وأتت النار عليها بأكملها حتى صار المعمور منها كذرةً في الشمس أو قطرة في البحر، والآن يعمرها الناس والمخلوقات.

الحمد لله وحده علم بما في مدينة الصالح أيوب أي مدينة المنصورة من ولايات مصر المحروسة من المساجد والوكائل والمدرسة والحمامات والأسواق وضرائح الأولياء نفع الله تعالى المسلمين ببركاتهم في الدنيا والآخرة آمين يا معين، ولهذا ذكرنا ووصفنا مدينة المنصورة، إنها كاشفية أخرى في مصر لكن مع كونها حكومة كبيرة والعرب يغيرون عليها من وقت إلى آخر لذلك منحت لأمراء مصر، وليس في قراها زعامة ولا تيمار ولكن فيها سبعمائة وسبع وثمانون من القرى والقصبات والمدن، وكلها التزام، وهذه القرى المذكورة تقدم في العام ثلاثمائة كيس إلى السلطان إنها قضاء شريف.

وفي هذا الإقليم:

قضاء ميت غمر

قدم مائة وخمسين أفجه، وهى قضاء شريف، وقد ضم هذا القضاء إلى المنصورة، ومنها يتحصل حوالى عشرة أكياس، وحاكم المنصورة يقدم المال الأميرى، وهو ملتزم يقدم فى الصيف والشتاء أربعين كيساً، ويفيض له عشرة أكياس، وقد يقدم عشرين كيساً ولهذه البلدة أربعة يفتون على المذاهب الأربعة ولها نقيب أشراف وقائد للاتكشارية وعزب، ولكن الجند كثير، وعلى شاطئ النيل حدائق كثيرة وورود وريحان ورياض وتسعمائة بيت جميل وقصور فخمة وهى مدينة جميلة، ومن ظهر عليها على بعد ميل أظهر إعجابها بها، وبها ثلاثمائة محراب وفيها جوامع للسلاطين والعظماء والأعيان وبين السوق السلطانية والمحكمة والجامع الكبير، وهو جامع السلطان الصالح، وطوله مائة وثمانون خطوة وكذلك عرضه، وله سقف منقوش مقام على ثمانين عموداً من الرخام، ومبارته من ثلاثة طوابق وله قبة، وعلى بابه الأيمن كتب عليه (تعمير رجب شورباجى سنة ١٠٨١)، إنه جامع عتيق، وعلى شاطئ النيل جامع الصغير وجامع المحمودية وجامع آخر على شاطئ النيل أيضاً طوله وعرضه مائة خطوة وعشرة، وله بابان جانبيين وباب للقبلة ومنارة على الطرز الرومى وهى من طابق واحد، وداخل الجامع خمسة عشر عموداً وليس له حرم، أما على شاطئ النيل فله موضع فى جوانبه الأربعة صنف وهو موضع يستحق المشاهدة، ويجتمع الناس تحت ما به من أشجار الجميز والصفصاف وبعضهم يصيد السمك من إحدى مواضعه، وبعضهم يتوضأ وبعضهم يصلى، وبه دار شفا ومقهى يشرب فيها القهوة اليمنية، إنه مكان للراحة والمتعة وبعد الأذان والصلاة يثنون ويترحمون على محمود بانى هذا الجامع.

وعلى شاطئ النيل فى الطريق العام جامع يقال عنه «كاشف النيل»، وهو مرتفع أبيض وهو وقف متين وكان غاية فى العمران فى حياة صاحب الدويرات، وفى السوق جامع رضوانية، وجامع الحيدرية وجامع أمير على الفرحانى وجامع ريحانية وجامع الخطاى وجامع السادة الكنانية يقع على شاطئ النيل، بل فى جنوب المدينة وعلى شاطئ النيل والطريق العام جامع إدريس وجامع ابن قانصو، وجامع جعفر أغا كان فى الأصل

زاوية ثم أعيد بناءها لتكون جامعاً. وفي نهاية الناحية الشرقية للمدينة جامع مصطفى أغا الجديد، وهذه الجوامع سالفة الذكر عامرة بالمصلين، ولا نعرف جوامع أخرى.

الزوايا

أما الزوايا فمنها زاوية الشيخ الملباوى وزاوية منية الدولة وزاوية الأمير حسن وزاوية ابن جعفر، وزاوية الغرابي، وفي السوق زاوية المعلقى وزاوية ابن ياسين وزاوية الشيخ ابن عامر وزاوية مقدم فرهاد والزاوية الحمراء، وقد صلينا في تلك المساجد التي سبق لنا ذكرها، ولا نعرف غيرها وعلى شاطئ النيل ست مدارس وسبعون مكتباً للصبيان، وأربعون سبيلاً وحمّامان ولا يوجد سواهما، كما يوجد ثمانى عشرة وكالة أولاً خان أمير دلاور وخان الأمير مصطفى وخان المحمودية وخان الكسنانية وخان الأمير أحمد وخان عورت وخان مالكى وخان ابن ياسين وخان الشيخ عبد الوهاب وخان مسلماني وخان القاضي أحمد وخان النيل وخان القفاصين وخان خشب وخان حطيبة وهذه الخانات وكالات معمورة، ولا وجود لمبانٍ أخرى واثنتان وأربعون ربّعة فيها غرف للمريدين المتزوجين، وثمة أربعون أو خمسون خاناً يسمى كلّ واحدٍ منها الربع، وسبع معاصر أى طواحين زيت، وخمسة وسبعون طاحونة تديرها الجياد، وفيها من المقاهى أربعون مقهى ومائة وخمسون دكاناً ولكن ليس فيها سوق قائمة بذاتها، ولكن لكل شىء، ويقام سوق عظيمة مرة في كل أسبوع يحتشد فيها أربعون ألف أو خمسون ألف إنسان، إنها سوق القمح وسوق السمك، وسوق الخيل وسوق الغنم وسوق الفاكهة وسوق الثيران، وهذه الأسواق توجد في أماكن أخرى وعورت بازاری تقع على شاطئ النيل إنها سوق عجيبة، وطرق هذه الأسواق غير نظيفة أما بقية طرق الأسواق فطرق واسعة نظيفة، وتظلّل جميع الأسواق نخلات، فيتألف منها سقف عليها، وبذلك تكون الأسواق طيبة الهواء عند اشتداد الحر وطول هذه المدينة على النيل ألف ومائة خطوة، وجمالها وجمال جوها يتميز فتيانها وفتياتها بالجمال، وأهلها يكرمون وفادة الغرباء، وفيها عظماء الأعيان، فهم يبدلون القرى للمجاورين والمسافرين فأمام باب دلاور الكاشف يطعم الفقراء ليل نهار، كما أن قوجه

مصطفى أغا يكرم المسافرين والمساكين، وفى المدينة ما لا يدخل تحت حصر من العلماء والمريدين والصالحين.

بيان بزيارتنا لكبار الأولياء

هذه ضرائح الصالحين الشيخ شرف الدين أقصرى والشيخ الطميهى مدفونان فى زاوية الشيخ ريحان كما دفن الشيخ سيدى على الأسمر فى الجامع الكبير، وثمة شيخ آخر سألت عنه فما وجدت جواباً، وخارج المدينة فى جنوبها قبر عظيم للشيخ كنانة، وقد دفن أربعون من الأولياء فى مكان واحد، كانوا قديماً من اللصوص ولكن الله هداهم وأصبحوا جميعاً أولياء وعلى رأسهم قطب الأقطاب شيخ الطريقة الكنانية، ويقام له مولد مرة فى كل عام، ويجتمع فى مولده حوالى أربعون ألف إنسان، وفى خيامهم يقام عشرة أيام وعشر ليال، وقد أغار لصوص العرب على ميدان ملقه أثناء انعقاد مولده، وقد نهبوا السوق واستشهد كثير من الناس، وفى الترو والحال ظهر فى المدينة أربعون على رؤوسهم العمامات الخضراء يركبون الخيول الشهب ويحملون الرماح، فقتلوا هؤلاء اللصوص عن آخرهم، ثم غابوا عن العيون.

هذه مناقب قرية العهد لم يَمْضِ عليها سوى سبعين سنة، ومنذ هذا الزمان لم يحضر أحد المولد، هذا ما مر بسمى هذا ما أمر (طورنا مصطفى بك) كاشف المنصورة واجتمع فى المنصورة حشد كبير من الناس، وقد حضرت معهم ولله الحمد وقد دفن الشيخ عبد الجليل الملباوى فى ضريح عظيم، وبالقرب من ضريح الشيخ الملباوى ضريح الشيخ زبيبه والشيخ الخوَّاص وإلى جانب المحكمة السيدة آسية والشيخ عريان والشيخ كليبانى، ومداح رسول الله الشيخ سيدى محمد كميلى والشيخ منية الدولة وقد دفنا بجوار جامع إدريس كما دفن الشيخ طاهر والشيخ نصار والشيخ سند فى الجهة القبلىة من المدينة بالقرب من جامع الأمير مصطفى، والشيخ سعد والشيخ حسن دفنا فى جامع الخطائى ودفن بجوار قبر الشيخ بهلول الشيخ الموالى كيرلى محمود أفندى، وهو من علماء الروم المشاهير فهؤلاء العلماء منهم من دفن فى ضريح ومنهم من دفن فى تكية، وقد زرت ضرائحهم ومررت وجهى الأسود على ضرائحهم رحمة الله عليهم أجمعين،

وقد تجولت في هذه المدينة وشاهدت كل ما فيها وعقدت نيتي أن أزور مدينة المنزلة، فركبت سفينة وانطلقنا إلى المنزلة.

وصف ما مررنا به من منازل في طريقنا إلى المنزلة

رأينا ترعة عظيمة في جنوب مدينة المنصورة وبالقرب من جامع مصطفى أغا، ومضينا بالسفينة في ترعة صلاح الدين، وعلى جانبيها ست وسبعون قرية معمورة. ورأينا عزبة نزلنا عليها ضيوفاً.

أوصاف مدينة المنزلة القديمة

نزلنا في دار الملتزم وتجولنا فيها لمشاهدتها، ويتفرع من هذه الترعة خليج على جانبيه بيوت معمورة، على جانبي الترعة حدائق وبساتين، وعبرها جسر من الخشب على الترعة وعلى ضفتيها بساتين، وكل حديقة مساحتها عشرة أو خمسة عشر فداناً، وفي كل منها يطيب الليمون والتمر والرمان والتين، ولكن لا وجود فيها للقمح، والأرز الذي في المنزلة لا نظير له في العالم بأسره، إنه أبيض ولذيذ، والبحيرة على مسيرة ربع ساعة من شمال المدينة، والترعة التي تروى هذه المدينة تصب في هذه البحيرة، وهي التزام تابع للمنصورة، ويحكمها أى من قبل كاشف المنصورة حيناً والباشا أغا حيناً ويقدم الباشا في كل عام كشوفية قدرها ست أكياس، وهي قضاء يدر مائة وخمسين أقبج ولقاضيها في كل عام خمسة أكياس، وفي ناحية منها قرى للأرز، ويحصل من جميع القرى ست وخمسون كيساً، كما أن الصيادين يصيدون كل عام سبعة أحمال من السمك وبها ألف بيت وعشرة محلات وسبعون محراباً، وفيها ثمان خطب وفيما عدا ذلك مساجد، والجامع الكبير فيها يكثر فيه المصلون، وكان معبداً قديماً، وقد أنشأ هذا الجامع وزير صلاح الدين يوسف، وهو القعقاع التيمي، عندما فتح هذه المدينة، ولا تعرف جوامع أخرى بهذه المدينة، وزاوية الشيخ إبراهيم السلمونسي زاوية معمورة وفي هذه المدينة ثلاث منارات، ومدرسة وستة مكاتب للصبيان وسبعة سبل وخمس وكالات، ومائة دكان منها ثمانون مفتوحة وبقيتها موصدة، ولا سوق فيها وبها ثمانية مقاه، وسوق للعطارين فيها جميل، وتقام سوق كل سبعة أيام وهي سوق الخيل والغنم

والجمال، ولا وجود لسوق سواها لأنها ليست مدينة عظيمة، وأهلها فقراء إنهم يأكلون السمك ويتكسبون بصيده، وفيها سمك عجيب، وفي الشتاء تأتي الوحوش والطيور إلى الحدائق فيتصيدها أهل هذه المدينة، وتشتهر المدينة بالقمصان البيض، وأهلها مشهورون بالجمال.

ضرائح المنزلة

دفن الشيخ محمد العقابى فى زاويته، ودفن إبراهيم السلمونى فى زاويته وبالقرب من القرافة الكبرى قبر الشيخ طاهر، وبالقرب منه دفن القعقاع الوزير، وبالقرب من قبر الوزير القعقاع التميمى دفنت الست صاحبة رحمة الله عليهم أجمعين ولها مناقب كثيرة كأنها رابعة العدوية، والشيخ شهاب الدين الأنصارى من الصحابة الكرام، وهو مدفون بالقرب من زاوية الحياطين، وقبر الشيخ محمد الشامى بالقرب من سوق العطارين رحمة الله عليهم أجمعين، وما أكثر مناقب الأولياء، ولكننا نزلنا ضيوفاً فى هذه المدينة مدة يوم وليلة.

ثم بعد ذلك ركبنا السفينة، وعدنا إلى التربة التى جئنا فيها وقد بذل الملاحون الجهد الجهد فبلغنا مدينة المنصورة، ثم ودعنا الأعيان فى تلك المدينة، وركبنا السفينة وقبالة هذه المدينة:

مدينة طلخا

وبها ثلاثمائة بيت وعلى ضفة النيل جامع ذو منارة، وفيها شيخ انهدمت مقبرته عند فيضان النيل فوضعه فى تابوت على مرأى من الناس، ومضينا إلى:

بلدة الشيخ رمضان

وبها مائة بيت وهى بلدة صغيرة وناحية المنصورة:

بلدة ميت خميس

وبها مائة بيت وجامع، وتجاهها على حدود إقليم الغربية:

بلدة ميت الغرقا

وبها مائتا بيت وجامع، وفى إقليم المنصورة:

بلدة ميت ويش

وبها ثلاثمائة بيت وجامع، وفى إقليم الغربية:

بلدة ميت عساس

والى جانب إقليم المنصورة:

بلدة نوه سى

وكذلك فى حدود المنصورة:

بلدة ميت ثعبانيه

وفى جنوبها:

ميت المنية

وتجاهها فى إقليم الغربية:

مدينة لوط.

أوصاف مدينة لوط

إنها مدينة معمورة، وهى مرفأً لسمنوط، وهى على شاطئ النيل وتحوى ثلاثمائة بيت وهى قصبة جميلة والتزام، وكانت فى قديم الزمان مدينة قديمة وفيها آثار لقوم جالوط، وهى قضاء يدر مائة وخمسين أوجه، ولقاضيها مرتب يقدم صدقة، وهو نائب الحاكم، وهذه المدينة تُدرُّ فى كل عام خمسة أكياس، وقرى نواحيها تحوى اثنين وأربعين بيتاً وفيها ستة محارِب وثلاث خطب وفى مرفأها جامع علوى به أربعة عشر عموداً عليها سقف، وله ثلاثة أبواب ومنارة منهدمة، وخان وحمام وستة مقاهٍ وخمسون دكاناً وسبعة سبل واثنا عشر مكتباً للصبيان وعلى ضفة النيل محكمة.

وصف ضرائحها

الشيخ إسماعيل العَدَوِي وسيدى عبد الله الخلف وهما مدفونان فى مسجد الغدوى،

ثم امتطينا خيولنا فبلغنا ضريح:

بلدة أبو على

وهى التزام الأمير مُصلًى أغا، وفيها نخيل وحدائق وثلاثمائة بيت وقرى معمورة،
تجاوزناها فبلغنا:

بلدة قيطاس أغا

وبها مائتا بيت وجامع إنها قرية عامرة ولكن يسكنها قبيلة بنى حرام وهم أشرار.
وتجاوزناها إلى الشمال واجتازنا بقرى لا نعرف لها أسماء، كما عبرنا مروراً ببلاد على
شاطئ التربة، وفي هذه البلاد كثير من البساتين، وعلى مسيرة ساعة من سمنوط:

محلة الكبير

وهى العاصمة الثانية لإقليم الغربية، وهى مدينة عظيمة، واسمها باللسان القبطى
زيحان لوقوعها فى إقليم الغربية الذى يقع غرب إقليم الشرقية سماها الروم الغربية
والمحلة الكبير جزيرة تقع فى النيل بين إقليم الشرقية والبحيرة، وهى كنانة الله ابتداء من
مصر، ثم المحلة، ثم رشيد، ثم دمياط، ثم منية ومنفلوط وهذه مدن كثيرة، ولكن هذه
المحلة ليست معمورة فى يومنا هذا، ولكن فى سبعين موضع من أرضها طلاس، وعلى
حد قول المقريزى إنها من بناء مصرايم بعد طوفان نوح وبناء على علم النجوم استطاب
هذه المدينة مصرايم لطيب هوائها، وهذا ما حفزه على إنشائها، ولقد استولى عليها كثير
من الملوك على مر العصور، وبينما كان الظاهر بيبرس كاشفاً لهذه المدينة استطاب
جوها، وفى زمان ملكه جعل من هذه المدينة الحاضرة الثانية للملك، وكان يسكنها،
وتجرى إلى الآن ترعة إلى وسطها، وبالقرب من قصر الكاشف عليها ثلاث قناطر،
وعند العشاء تعزف فرقة موسيقية عند هذه القناطر وذلك طبق القانون السلطانى للظاهر
بيبرس، وينال أفراد هذه الفرقة الموسيقية رواتبهم من الكاشف، إن هذه الفرقة الموسيقية
تعزف على الدوام لأن هذه المدينة هى حاضرة البلاد الثانية.

وأمرأ مصر الذين فى درجة ميرميران وأتباعهم ألف وسبع فرق من المستحفظين
وعليهم فى التزامهم أن يقدموا مائتى كيس، وديوان مصر يختم بها حسابه، كما يُحصَلُ
مائتين وخمسين كيساً بعد المصاريف، وحاكمها صاحب منصب عالٍ وهو يرأس الأمراء

ما عدا أمير الحج والدفتردار، ويتقدم في سيره الأمراء والكاشفين لأنه حاكم العاصمة الثانية للبلاد، ويصبح بعد ذلك أمير الحج.

وفي إقليم الغربية ثلاثمائة وسبعون قرية معمورة وبها قاضٍ شرعى، ولا منصب في مصر أعلى من منصبه، وقد تصدق مراراً بمبلغ خمسمائة أوجه على رجال الدين، وطبق القانون يجب أن يتصدق بأربعمائة وتسعة وتسعون أوجه، وثمة محكمة في كل من سمنوط، وشربين وهذه المحاكم داخل هذه المدن وخارجها، إنها مدينة كبيرة، وفيها شيخ الإسلام على المذاهب الأربعة ونقيب الأشراف والأعيان والانكشارية والعزب والسردار والجاوش، وليس فيها قبو قولو سردار ولا سباه كتخدا، ولا آلاى بيكى ولا جرى باشى ولا أصحاب زعامت، إن كل قراها تدر المال السلطاني، إنها مدينة معمورة تجرى من تحتها الأنهار، وهى فى منزلتها بعد مصر، وبها قصور عالية كثيرة الطوابق، وبها بيوت كبيرة وصغيرة قديمة الطراز مُجَصَّصَة، وعلى ضفة الخليج قصور كبار الأعيان تطل نوافذها على الخليج.

وفيها بساتين وفيها سبعون محلة، ومائة وأربعون محراباً، سبعون منها تؤدى صلاة الجمعة فيها، وبها جوامع للسلطين والأولياء، وبالقرب من مالك بك جامع بالى بك، وهو جامع على ضفة النيل، أربعة أعمدة له فى النيل، وقد بنى على هذه الأعمدة، وهو جامع علوى ويصعد إليه بسلم من اثنتى عشرة درجة، وله ثلاثة أبواب أحدها فى جدار القبلة، وهو يطل على الطريق المواجه لقصر البك، وله باب يفتح على حوض وليس فى داخل الجامع أعمدة، وجوانب السقف مزخرفة ومذهبة، وهذا الجامع العلوى، تحته ستة دكاكين وله منارة تتألف من ثلاثة طوابق، وقد كتب على باب منبره بالخط الجلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ...﴾ {الأحزاب: ٥٦}.

وبعده على ضفة النيل جامع (الصفاء) وهو غاية فى الحسن ومنظره الجميل غاية فى الروعة، وعلى ضفة النيل كذلك تجاه قصر البك جامع خواجه عطار وله سقف منقوش بشتى الألوان ويقوم على ثلاثة وثلاثين عموداً، ومحرايه من الرخام، ومنبره من الخشب المنقوش، وله ثلاثة أبواب أحدها للقبلة وهو يطل على السوق وله بابان جانبيان يفضيان

إلى السوق وفي جانبه الأيسر منارة من ثلاثة طوابق وفي أعلاه تعتش الطيور وتفرخ بها، وفي السوق بناء جديد هو جامع مراد الشورباجي وسقفه على ثمانية أعمدة من الرخام، وقد دفن في هذا الجامع من أولاد الصحابة مثل عبد الله بن الزبير، ولهذا الغرض بنى الجامع، ويعتقد أن من يزوره يحقق مراده، وجامع الصمصمات مقام على عشرة أعمدة وله منبر صغير من الرخام، ولا وجود لمثله في البلاد وله منارة عالية طولها مائة وسبع عشرة خطوة، وكل خطوة تعادل ذراعاً، والصعود إليها عسير، وقد صعدت هذه المنارة وأشرفت ببصرى على المدينة فرأيت مدينة إرم ذات العماد، وقد بدت فيها أربعون منارة، وفي سوق العطارين الجامع الكبير، وقد بناه الشيخ أبو بكر طرغبي ووسعه من بعد الملك الظاهر، وبذلك صار جامعاً كبيراً وطوله وعرضه مائة خطوة، ومنبر هذا الجامع ومحراه من الطرز القديم، وفي حرمه الكبير قبة وسبيل، وفي داخل الجامع وخارجه مائة عمود رخامي عليها سقف منقوش، وفي الركن الأيسر لحرمه منارتان كأنهما برجان، وعلى باب منبره الخشبي كتب بالخط الكوفي (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ومقعد المؤذن على ستة قوائم رقيقة من الرخام، وهو من الخشب يشبه المقصورة.

ولا وجود لجامع أكبر من هذا الجامع في هذه البلدة ويقام مولد في كل عام بها يجتمع فيه مائة ألف إنسان، ومساحة الجامع طولاً وعرضاً مائة وثمانية وخمسون خطوة، وله سقف على ثلاث وثمانين عموداً وصحن الجامع غير مسقف، والشيخ عبد الله مدفون في ذلك الصحن الواسع، وبما أنه مدفون داخل الجامع فليس ضريحاً، ولكنه في تابوت وفي هذا المكان شجرة نبق وقد رفت ظلالتها على حرم الجامع وخارجه، وهي تثمر أربع مرات في العام الواحد منه في حجم العين، وفي المدينة كذلك جامع الوزير يجتمع فيه جمع غفير من المصلين، وكذلك جامع ابن عباس الغمري، وطوله وعرضه مائة وخمسون خطوة، ومنبره من خشب، وعلى يسرة محرابه كتابة، ويقول البعض إن هذه الكتابة من الزبور وتحتها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ...﴾ (التوبة: ١٨)، وسقفه ذو ألوان يقوم على سبعة وثلاثين عموداً وله ثلاثة أبواب، ومنارة

من ثلاث طوابق، صحته بلا سقف، وفى الجانب الأيسر من جدار محرابه دفن الشيخ عباس غمرى، وجامع (تَعَبْرُهَا) جامع صغير، وجامع الشيخ إبراهيم سقفه مقام على سبعة أعمدة، وهو جامع صغير مكشوف الصحن، وقد دفن فى حرمه الشيخ إبراهيم وعلى مقربة من هذا الجامع جامع الشيخ ديار وهو جامع صغير منارته قصيرة، وثمة جوامع كثيرة خلاف ما ذكرنا. ولقد رأينا كثيراً من الجوامع الجميلة، كما أن الزوايا لا تقع تحت حصر وفى هذا البلد تسع مدارس وسبعة دور من دور الحديث، وسبعون تكية، لأن جميع أصحاب الطرق الصوفية فى هذه البلدة، وجميع أهل هذا الإقليم من أهل السنة، ومن التكايا تكية الشيخ عبد الرحمن المالكى، وتكية عبد الله درغام وإحدى عشرة تكية من تكايا السيد البدوى، والتكية البرهانية، وتكية صفافى، وتكية كميلى وهى تكايا معمورة، ومنها تكايا توزع فيها الصدقات ويذل أصحابها فيها الصدقات وهم على قيد الحياة، وفيها مائة وعشرون مكتباً للصبيان، وتوزع ثياب العيد على اليتامى، وبها مائتا سبيل، وبعض هذه المكاتب تقع فوق هذه السبل، وهذا هو قانون مصر. وبها خمسة حمامات، وبها صهاريج، ويوجد حمام للنصارى، لا يدخله المسلمون قط، وحمام بالى بك حمام لطيف، كما أن سبعة حمامات موصدة أما حمام الوفا فضريح، وبنائوه جميل وجوه معتدل، وحمامات القصور يزيد عددها على الألف، ويخرج المريدون مع الفجر إلى الخليج يستحمون فيه، وفيها سبعون خائساً، فى سبع عشرة منها يباع القمح والشعير والبول، وفى هذه البلدة تباع جميع الغلال، وبها ألفان وثلاثمائة وخمسة وأربعون دكاناً، وجميع أسواقها مغطاة، وكل السلع موجودة فى هذه البلدة. وبها ثمانية وأربعون مقهى وهذه المقاهى مفتوحة ليلاً ونهاراً وفيها المطربون والمداحون وفيها يجلس أهل العلم ليل نهار.

وفى هذه البلدة مائتا طاحونة زيت وثلثمائة وثمانون طاحونة تديرها الخيل وبها عشرة مخابز وكل بيت فى البلدة مخبز معين لها. ولا حاجة بأهل هذه البيوت إلى الأسواق، ولكن للغرباء والمسافرين عشرة مخابز وشوارع السوق السلطانية واسعة

نظيفة، لأن النيل يجرى فى وسط هذه البلدة ومعظم قصورها ويوتها الجميلة على ضفة الخليج، وأعيان الإقليم يلقى بعضهم على بعض السلام من قصورهم ويصيدون السمك من الكوات، ويسبح الفتيان فى النيل، وكل بيوت هذه البلدة مبنية بالحجر، ولها جدران وأبوابها ذات مصراعين، وسطوحها مجصصة وليس فى المدينة أحجار بناء وإذا مست الحاجة إليها فى هذه البلدة حملتها إليهم من مصر السفن عند وقت فيضان النيل، لأن النيل فى فيضانه يغمر أقاليم مصر كلها وتصبح أراضي مصر فى ماء الفيضان جزراً، وثمة فرقة موسيقية تعزف فى دكان على الجسر، ونوافذ هذه الدكاكين تطل على النيل، وفى مصر ثلثمائة جسر بالقرب من سوق الغلال، وثمة دكاكين أخرى تطل نوافذها على التربة وفى هذه المحلة مرفأ تأتي إليه السفن والقوارب بالغلال وثمة جسر فى جنوب البلدة على ترعة الصابونية يسمى جسر جعفر أغا إنه جسر عظيم من الحجر، وفى وسط صراطه كتب على لوحة مربعة من الرخام:

تأمل ترى ما شاده أئندن جعفر .: هو القاسمى مات إلى الخير يقصد

لقنطرة فيها يقول مؤرخ .: ثناء له فخر وعز يؤيد

سنة ١٠٧٣ .

ولاعتدال جو هذه البلدة اشتهرت نساؤها بروعة جمالهن . كما أن الجند يلبسون فيها ثياباً فاخرة . ويضع نساءها على رؤوسهن قلانص من ذهب وفضة . كما يلبسن الحرير ويسرن . وتشتهر هذه المدينة بالخبز الأبيض والطحينة والجبن أما صنعمهم للسجاجيد الحريرية لا نظير لها فى العالم . إلا ما يصنع فى أصفهان كما يصنع المناشف وأنواع من الأقمشة الحريرية وفى هذه البلدة محلة لليهود ومحلتان للأقباط وبها ألف بيت وسبع كنائس . وفى سجل شيخ البلد أن تعداد أهل هذه البلدة سبعة آلاف وهى تصدر القطن وهو من أهم حاصلاتها . إن ذكر ما لا قيمة له مملول . ولذلك اكتفينا بما ذكرنا . فخير الكلام ما قل ودل .

أوصاف ضرائح المحلة الكبرى

وقد ذكرنا من قبل كبار الأولياء الذين دفنوا فى الجوامع وعند باب المحلة عند نهاية الطرف الغربى للمحلة دفن الشيخ عبد المجيد الشامولى وضريحه تطل نوافذه على الطريق العام، وقد كتب على عتبة بالخط الجلى: (أنشأه السيد بن الحسين سيدى عبد الوهاب وسيدى عبد المؤمن أخيه سيد عبد المنعم).

زيارة ضريح المولى عبد الباقي بن محمود بن عطاء الدين حمالى زاده

هو متولى مدينة مصر، وكانت له هذه المحلة الكبرى ومات وهو مدفون عند رأس الجسر الذى على ترعة الصابونية فى ضريح على الطراز الرومى وقد كتب عليه تاريخ؛ ولأنه على الطريق العام يزار ضريحه، وكان فصيحاً ناصع البيان لذلك وردت ترجمته فى تاريخ المقرئى، وعلى مقربة منه على رأس الجسر ضريح الملاء على بن سنان، وقد من مدينة أسبارطه، وكان من علماء السلطان أحمد وعلى ضريحه تاريخ هو فى سنة ١٠٢٩ قدسنا الله بصره العزيز رحمة الله عليهم أجمعين، وعلاوة على ذلك آلاف من الضرائح، وقد مرغت وجهى على عتبته، والضرائح التى زرتها فى هذه البلدة سبعة وأربعون وقد شرفت بزيارتها والله أحمد أنى نلت من حسن أغا الكاشف عشرة قروش وجوداً، وبعض ما يصنع فى المحلة، وودعت أحبتى وخلاتى وبعد ساعتين، بلغنا قسبة سمنوط، وعبرنا النيل إلى إقليم الشرقية فبلغنا:

ميت أبو الحارث

وتجاهها فى إقليم الغربية:

ميت أبو صير

وفى المنصورة:

ميت بورو

وتجاهها بلدة بنيا، وفى المنصورة كذلك بلدة المنطرة، وفى الغربية بلدة ميت بدر وفى المنصورة أيضاً ميت دميس، وفى الغربية بلدة شوبران، وفى المنصورة كذلك ميت أشنى.

أوصاف قصبة شنباط^(١) الكبيرة

تقع فى إقليم الغربية، وبها مائتا بيت وعدة جوامع ومساجد وأسواق صغيرة ومقاه، وهى مدينة كثير رجالها ونساؤها، وقد نزلت ضيفاً على دار ضيافة فيها ذات ليلة، وفى الصباح مضينا إلى المنصورة فبلغنا بلدة:

شرنجى

وقبالتها فى الغربية بلدة:

دهنور

وفى المنصورة مدينة ميت غمر العظيمة وقد أسلفت ذكرها، وتجاهها فى إقليم الغربية
قصبة:

زفته

والتي سلف ذكرها وفى جنوبها فى إقليم المنصورة بلدة:

معصره

وفى الغربية قبالتها فى بلدة:

مسيد

وبجوارها بلدة:

وصيد

وفى المنصورة بلدة:

ميت العز

وفى الغربية:

ميت الحارون

وفى المنصورة بلدة:

الصفين

وقبالتها فى الغربية بلدة:

تفهني

وللشيخ داود العزب فيها ضريح عظيم، والذي ظهرت له كرامات ومعجزات ذكرت في الكتب وفي كتاب طبقات الشعراني أنه قطب عظيم له منزلة عبد القادر الجيلاني، وجنيد البغدادي وأحمد البدوي، وإبراهيم الدسوقي. ومضينا إلى هند يمنه، وفي إقليم المنصورة بلدة:

سندی

وقبالتها في إقليم الغربية بلدة:

میت بری

وفي المنصورة بلدة:

أشبون

وفي المنصورة كذلك:

كفر مويش

وقبالتها في إقليم الغربية بلدة:

مِلَّو

وفي المنصورة بلدة:

بنهي

وتجاهها في الغربية بلدة بطاي وفي المنصورة بلدة رَمْلَى، وتجاهها غرباً:

كفر أبو الطواقي

وفي إقليم القليوبية:

میت عطار

وهي بلدة عظيمة كأنها قسبة وفيها تجمع حدود أربعة سناجق وهي سنجق الغربية وسنجق المنصورة وسنجق المنوفية وسنجق القليوبية. والسناجق الأربعة تسمع آذان ميت عطار لأن حدود كل منها متقاربة، وفي آخر إقليم الغربية بلدة:

سیدی خضر

وفى أول حدود المنوفية بلدة:

العطف

وأخر حدود الشرقية بلدة:

طحلة

وفى أول حدود إقليم القليوبية بلدة:

دجوى

وهى التزام أوزبك بك، واقتضت حكمة الله أن تكون قرى الحدود هذه مجتمعة فى أرض واحدة ودخلنا الحد الأيمن لإقليم المنوفية، ودخلنا الحد الأيمن لإقليم القليوبية، وفى إقليم منوف بلدة:

ميت عفيف

وهى تجاهها بلدة دجوى.

وبلدة طنط

تتبع قليوب، وتجاهها فى المنوفية:

بلدة برشمس

وفى إقليم القليوبية بلدة:

برشوم

وتجاهها فى المنوفية بلدة:

أبوشعرا

وتجاهها على ضفة النيل بقية القليوبية.

أوصاف قسبة القليوبية

وقد كتب عنها المؤرخ أبو المال كثيراً، وجاء فى تواريخ القبط أن أول من بناها هامان وزير فرعون، وقد تبقى فيها أساس قصره وبستان، وباب من أبواب بستانه، ويسمونه بئر هامان وماؤه عزب والسواقى تدور فى اثنى عشر موضعاً فيها، وهذه السواقى تروى ما فيها من مزارع قصب السكر، ويزعم القبط أن فى مائها شفاء المريض، وقليوب

كاشفية، وقد سبق أن قلنا إن مائتي كيس تتحصل منها، ويتبعها مائتان وثمانون قرية ويحصل من هذه القرى بعد المصروفات مائة كيس، إنها قضاء يدر مائة وخمسين أقبه، وكانت تغل مدة من الزمن عشرة أكياس ستة وسبعون من قراها، ولقربها من مصر ليس لها من يتولون الإفتاء على المذاهب الأربعة كما تخلو من نقيب للأشراف، ولكن فيها قائد للانكشارية والعزب، وقديماً كان يوجد فيها ألف حديقة، والآن فيها ثلاثمائة بستان كما أن فيها ألفى بيت وأربعون محراباً، وسبع خطب، وبالقرب من السوق السلطانية جامع قديم ويتسع لآلاف المصلين، وله سقف يقوم على أربعين عموداً، ومنارة تتألف من ثلاث طوابق، ولم نشاهد جامعاً آخر، وفيها عشرون مكتباً للصبيان وثمانية خانات وسبعة مقاه، ومائتا دكان. وركبنا زورقنا الذى جرى بنا فى النيل، وبعد سبعة أميال بلغنا بلدة شبرا التى سبق ذكرها، وهى فى نهاية حدود إقليم القليوبية، وبعدها حدود مصر وتجاهها فى إقليم المنوفية محلة تسمى بحر، وبها تتم حدود المنوفية، وآخر حددها:

بلدة السروى

وهى على بعد أربعمائة ميل من دمياط وعلى شاطئ النيل تقع مدن صغيرة معمورة وقد شاهدت معظم الجوامع المشهورة والكبيرة، والزوايا والمدارس والوكالات المعمورة والمزينة والحدائق والترع واستمعت إلى ألحان البلابل الجميلة فى البساتين، ووصفت مزارع النخيل والحدائق، واكتفيت بذلك حتى لا يطول بنا الكلام وليس على نيل دمياط قرى مثل ما على نيل رشيد، وعلى نيل رشيد توجد مدن كثيرة ولا وجود لعمران فى إقليم البحيرة وأكثره صحراء. ثم مضينا إلى محلة شبرا. وفى الشهر الثالث دخلنا مصر والتقيت مع الكتخدا إبراهيم باشا. وقدمت إليه ما استطعت تقديمه من هداياى فتقبلها منى. وتجولت وشاهدت السديار وتعرفت أحوال الرعايا والبرايا. وسألت ملتزماً الكاشف. ومضينا إلى صحراء البرلس وطعمنا. ونلنا من خضر بك خلعة حسنة وجواداً. والله عالم السر والخطفيا، وخضر بك وزير منير الضمير وسخى جواد وقد تشرفت بالتحدث معه فى الليل والنهار، وقال ذات ليلة أثناء حديثى معه إنه تجول فى البلاد شبراً شبراً وسوف أبعث بك إلى حاكم جرجه فقال لى لا تنسى دعاءنا لك بالخير وأمر رفعت أفندى رئيس الديوان أن يكتب لحاكم جرجه أن أوليا جلبي صديق حميم وأخ كريم فإذا وصل إليك وأراد التجول فى البلاد فهىء له السبيل.

وأمام مدينة أسيوط غرقت سفينة أميرية تحمل ألف أردب من الغلال. وقد كتب أمراً بالتحقيق فى هذا وأصدرت الأوامر إلى جميع الكاشفين والمتزمين بذلك. وانتهزت هذه الفرصة وخرجت بعد أن قبلت يده. ورجوت إليه أن يكتب رسائل إلى حاكم الفونج. وسألت من رجال الديوان فى مصر. هل فى الإمكان أن أمضى. فقالوا نعم هذا فى الإمكان ولكن الحرّ كان شديداً والطريق غير آمنة. وقالوا إن هذه السّفرة صعبة شديدة ولكن سوف تمضى فى خير وأمان بمشيئة الله. وكتبت الرسالة لى فكانت أمراً إلى حاكم جرجة.

إن ملك الفونج كان راسخ العقيدة فى الشيخ البكرى، والشيخ محمد، وقلنا منه سبعة رسائل لِننال بها الهدايا، قلنا جواداً وبساطاً طاهراً، وعشرة كؤوس وثلاثة قسى وكانت ترسل الهدايا ورسائل الصداقة من مصر إلى الجزائر وتونس وفاس ومراكش وبلاد البربر وبلاد الفونج والسودان وبلاد الحبشة واليمن ومكة والمدينة والبادية العربية وكذلك بلاد المغرب.

فقد وصل إلى سفير اليمن فرمان كما أعطى لى رسائل ورسائل مودة، ومنذ عهد السلطان سليم الأول قدم مصر سبعون وزيراً، لأن الحل والعقد كان فى يد الكتخدا لأنه كان وكيلاً يحكم كل شىء برأيه السديد، إلا أنه مع وفور عقله كان يتشاور مع من تقدمت بهم سنهم ليأنس برأيهم، ويعمل به، وكان يكرم كلاً منهم حسب مرتبته، وقد أعطانى أوراقاً لأسلمها لحاكم جرجة وبلاد الفونج، كما أعطانى مصاريف السفر وجواداً، ووصلت إلى الباشا فى اليوم الثالث، فأبلغت حاكم جرجة خبير غرق سفينة الغلال، وبلغت أوامره للكاشفين وغيرهم، ونلت من ملك الفونج رسالة وهدايا، فنلت منه نقوداً وجواداً وتخت شباب وقد أعطيت خدامه عشرة قروش، ودعوت له بالخير وقبلت يده وقلت إلى الملقى بمشيئة الله، وقرأت الفاتحة، وخرجت وودعت كل الأصدقاء والأحباب ومضينا متوكلين على الله.
